الحدث العظيم

للدكتور هلال السيد الحطاب
مساعد رئيس تحرير مجلة الفلاحة

في اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٩٦٤ ، استمع سكان العالم لدوى عظيم حدث فى أرض الفراعنة الخالدة ، بل أرض العروبة المتوثبة ، بل أرض الثورة المنطلقة ، بل أرض تفاعل خلاصة الروح المتوثبة الكامنة على مدى الأجيال لتنطلق فى هذا العصر ، هذا الدوى كان إيذانا بابتداء عصر جديد ، أثبت فيه الإنسان المصرى وجوده وقدرته وتصميمه على تحقق مايريد ، فحينما ضغط السيد الرئيس جمال عبد الناصر على أزرار تفجير الديناميت لتحويل مجرى نهر النيل ، لتدخل مصر مرحلة جديدة فى تطورها نحو القوة والمجد والشرف والرخاء ، سمع العالم ورأى بعينيه أن قوة مصر الجديدة أصبحت قوة أعمال لاقوة أقوال ، وأن رغبتها فى التقدم بعدت عن محيطات الأحلام والأوهام ودخلت فى نطاق العزم والقدرة على التنفيذ .

ومن روائع الوحدة الإنسانية أن اجتمع عديد من رؤساء العالم ، وهم : السيد خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى ، والسيد المشير الركن عبدالسلام محمد عارف رئيس الجمهورية العراقية ، والسيد المشير عبدالله السلال رئيس الجمهورية اليمنية ، والسيد الرئيس البطل أحمد بن بيلا رئيس جمهورية الجزائر الشعبية ، بالإضافة إلى آلاف من ضيوف مصر ، الذين حضروا ليشاركوا البلاد فرحتها بتحقيق أهم مشروعاتها المائية والكهربائية .

إن للثورة آثارها المجيدة ومشروعاتها المثمرة ، والسد العالى أول القائمة فى الأمجاد ، ومشرق الحضارة فى هذه البلاد . والسد العالى ، فى العصر الحديث ، معجزة إيمان من نوع جديد ، وإيمان بإصالة الشعب المصرى وعراقة مقوماته ،

وإيمان بإخلاصه والتفافه حول قائده ،وإيمان القائد بثبات هذا الشعب وإخلاصه .

وليست معجزة السد فى أنه أضخم عمل هندسى تم فى القرن العشرين ، بل إن معجزته فى الظروف التى مرت عليه ، منذ أن كان فكرة تراود خيال المفكرين إلى أن أصبح حقيقة واقعة ، ولولا الإيمان ، لما أمكن أن يكون السد العالى قائماً تفتتح أول مراحله فى هذا الشهر المبارك .

وليس بخاف على أحد أن معدل زيادة السكان فى مصر قد ارتفع تدريجيا منذ بداية هذا القرن زيادة واضحة ، مما ترتب عليه أن زادت كثافة السكان فى مصر زيادة هائلة وصلت فى سنة ١٩٦٠ إلى أكثر من ١٠ مليون نفس عما كانت عليه فى عام ١٩٣٧ ، ولابد أن يكون لهذه الزيادة السكانية مصدر للقوت . ولقد حاولت مصر جهد طاقتها أن تزيد من المساحة المزروعة فيها فأنشأت السدود والقناطر ، وعملت على تعلية خزان أسوان أكثر من مرة ومع ذلك لم تزد المساحة المزروعة فى خلال خمسين عاما أكثر من نصف مليون فدان . وكان لعدم تزايد المساحة أو الإنتاج بالنسبة للزيادة الواضحة فى عدد السكان، أثر واضح فى مستوى حياة الناس ورخائهم ، فانخفض القدر المتاح لهم من السلع الرئيسية والخدمات ، وبدت على كثير من سكان الريف علامات سوء التغذية وضعف الصحة ، ولا ننسى أن عدد الذين ماتوا من أثر إصابة محافظة قنا ببعوضة الجامبيا ، التى نقلت نوعا خطيرا من الملاريا إلى هذه المحافظة فى عام ١٩٤٧ ، كان أكثر من الذين ماتوا نتيجة نقص التغذية فى تلك الآونة . بل إن التقرير الصحى نص على أن أسباب الموت من المرض يرجع أساساً إلى مايعانيه سكان هذه البلاد من فقر غذائى .

ولقد كانت العقلية المسيطرة على البلاد فى تلك الأيام عقلية رجعية تسير وفق روتين من الوعود الكاذبة يلقى إلى الشعب الحائر على سبيل تسكين آلامه دون علاجها بأسلوب مخلص يزيل الأسباب ، ويهيئ فرصا أفضل للعمل أمام الشعب .

لذلك لم يكن عجيبا حينما تسلمت الثورة أمانة العمل لصالح هذا الشعب ، أن تفكر أول ماتفكر فى مايعانيه من آلام لتحقق له أهم مايحتاجه من دواء .

وقد دلت الإحصاءات والوقائع على أن هذا الشعب يعانى من نقص المواد الغذائية ، مما جعل هناك سباقا نحو استيرادها ، نتيجة للسباق الهائل فى عدد السكان عاما بعد عام . وقد وضح من أول لحظة أن الحل لكى ننهض بالزراعة ، هو زيادة المساحة المزروعة من المحاصيل بوجه عام ليتوفر فائض فى المواد الغذائية يسمح برفع استهلاك السكان من الحبوب والمواد الغذائية الأخرى ، وبالتالى يسمح بإنتاج فائض من المحاصيل الصناعية ، مما يترتب عليه أن يتم تدريجيا الاستغناء عن استيراد تلك المواد .

وإذا كان إنشاء السد ، قد اصطدم فى مراحله الأولى بعقبة الحصول على رأس المال الذى يكفى لإنشائه ، مما جعل الذين قدروا السد من الناحية الرأسمالية ييأسون من وجود بارقة أمل فى تنفيذه ، فإن الذى قدر السد العالى من الناحية الروحية ، وأن أثره شامل على شعب عرف عنه القدرة على تحمل الصعاب ، والصبر الطويل فى سبيل تحقيق ما يريد ، فقد ملأ الإيمان فؤاد قائد مصر الملهم إذ أقدم بجرأة أذهلت العالم على تأميم قناة السويس لتوفير المال للسد العالى ، وهنا تبلورت أهم مرحلة حاسمة فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى ، فقد كان الخيال الباعث على تحقيق السد العالى قويا نتيجة الإيمان بما تجنيه البلاد من فوائده ، ونتيجة للإيمان بأن مصر القوية بالعاملين من أبنائها يمكنها أن تعتمد على سواعدهم فى تحقيق المعجزة ، أى معجزة ، معجزة دحر العدوان الثلاثى ! ومعجزة ثبات الشعب ووحدته ، ومعجزة البدء فى أكبر عمل هندسى قام به الإنسان فى العصر الحديث .

السد العالى ، ليس معجزة إرادة تحققت فحسب ، بل إن آثاره المستقبلة فى الزراعة والصناعة والحياة الاجتماعية ، لا يمكن مهما اتسع خيال الباحث الإلمام بها ، فصورة التطور فى أى ناحية من النواحى السابقة ستتم بسرعة وبضخامة يعجز أى فرد عن ملاحقتها . وقد تكون الأرقام فى هذه الحالة هاديا إلى مقدار التطور ، ولكنى أنبه إلى أن تلك الأرقام ، مع دلالاتها الكبيرة على الحد الأدنى لما ننتظر من مزايا السد ، إلا أنها تغفل جانبا هاما ، وهو تفاعل الإنسان المصرى الجديد بتفكيره وعلمه وأمله ، مع الناتج المادى من أرض أو كهرباء .

ويمكن بيان المزايا المادية لما سيحدث فى الزراعة نتيجة للسد العالى بالأرقام ، فيما يلى :

(١) زيادة المساحة المزروعة بمقدار يصل إلى مليونين من الأفدنة .

(٢) تحويل مساحة تزيد عن ٧٠٠ ألف فدان ، من أراضى الرى الحوضى إلى رى مستديم ، يمكن أن تزرع مرتين فى السنة بدلا من مرة واحدة .

(٣) استقرار مناوبات الرى وإمكان زراعة الأرز بما لايقل عن ٧٥٠ ألف فدان سنوياً .

(٤) تحسين حالة الصرف فى الجمهورية العربية المتحدة بخفض مستوى الماء الأرضى ، لاسيما فى مناطق الوجه القبلى ، دون الحاجة إلى إنشاء طلمبات صرف .

(٥) حماية البلاد من أى خطر للفيضان ، مع توفير الماء اللازم لمختلف الزراعات فى الأوقات المناسبة .

وإذا كان لابد أن نبين ما يجنيه كل مصرى على حدة من السد العالى ، فإن التقديرات الأولية للدخل الصافى منه تساوى ٢٤٠٠ مليون جنيه . أى أن نصيب كل فرد فى هذه الأمة سيبلغ مالا يقل عن تسعة جنيهات سنويا ، أى أنه سيحقق زيادة سنوية فى دخل كل فرد لا تقل عن ٢٥ ٪ من متوسط نصيب دخل الفرد الحالى .

ومع تسليمنا بكل ما سبق ، إلا أن تفاعل الإنسان المصرى الجديد ، هو العنصر الهام فى الإنتاج ، سواء من الأراضى الجديدة المضافة ، أو الأراضى المحولة ، أو الأراضى المحسنة ، وفى نظرى أنه لا يمكن ، بل لا يصح التفكير أن الزراعة فى الأراضى الجديدة ستسير على نفس المنوال والأسلوب والعقلية التى تزرع بها الأراضى القديمة ، بل إن فلاح السد العالى ، لابد أن يكون فلاحا ممتلئا بالإيمان بحق نفسه فى التطور وبحق بلده فى النهوض والارتقاء ، مع إزالة آثار الماضى بإقطاعه واستغلاله ورغبة ملحة فى ألا تعود .

وفلاح السد العالى ، لابد أن يكون له دراية كافية بالأساليب الزراعية المختلفة ، وأن يكون له رغبة أكيدة فى المسكن النظيف والاستفادة من الكهرباء ليس فى معيشته بل فى عمله ، وأن يكون وجود السد العالى باعثا على تكوين الأسر

السعيدة القليلة العدد ، الخالية من الأمراض التى تتمتع بفنون العمل المختلفة وفنون الثقافة المتعددة .

ومن الناحية الزراعية التطبيقية سيغير السد العالى عوامل الإنتاج التى عاش الفلاح المصرى مفكرا فيها أجيالا طويلا ، فتوفير المياه للأراضى المتاحة كان هو أساس السياسة الزراعية وأساس عمل الفلاح وقوام مشغوليته وتفكيره . وكانت الظروف مواتية لأن يعتمد الفلاح على الخصب الذى يحمله طمى النيل كل عام منتظراً ورود الماء ليحيي الأرض لتنبت من كل الثمرات .

أما بعد السد ، فالماء موفور ، وليس هناك مشكلة فى وجوده متى اقتضت ظروف الزراعة واحتياجاتها ، ولذلك سيكون كل جهد المزارع أن يحسن استخدام الماء وأن يهيئ فرص النماء أمام نباتاته ، بأن يراقب احتياجها إلى البوتاسيوم والمغنسيوم والمنجنيز والحديد ، وذلك بالإضافة إلى حمض الفوسفوريك والأزوت .

ولا شك أن النهوض بالزراعة متوقف على ما نبذل منذ الآن من جهد بشأن إعداد الفنيين العاملين فى الزراعة فى كل خطوة من خطوات الإنتاج . فلنعتبر مرحلة ما بعد السد العالى مرحلة لانتهاء عهود الإهمال والإسراف والاتكال ، وعلى وجه الإجمال لا بد أن يتمسك كل مواطن بمثل عليا واضحة عند الإقدام على العمل .

إذن لا يصح أن يوكل الإنتاج الزراعى إلى الفاشلين فى كل صناعة ، أو الذين قصرت مواهبهم عن العمل فى مهن أخرى تحتاج إلى كفاءة ذهنية عالية . والزراعة بعد السد العالى تتحمل المسئوليات الآتية :

(١) الإنتاج بما يكفل تغطية ما وضع من مدخرات الأمة من الأموال والجهد العضلى والنفسى فى السد التالى ، والتى لا يمكن الإقـــدام على ما يوازيها قبل فترة طويلة .

(٢) تحقيق الأهداف المرجوة من تطوير المجتمع الفلاحى من ناحيتى الإسكان الريفى والظروف الاجتماعية القروية .

(٣) وضع التطور الصناعى فى البلاد على أساس متين ، قوامه توفير المواد الخام الزراعية اللازمة للصناعة وتوفير المواد الغذائية للقائمين بها ، ولذلك وجب

أن يتغير فى أذهاننا صورة الفلاح الحالية من أنه طيب صابر مستسلم ، فهذا غير مطلوب من فلاح السد العالى ، لأنى أعتقد أن فلاح السد العالى لابد أن يكون فوق طيبته وصبره متحفزا مؤمنا كل الإيمان بمثل وأهداف اجتماعية تحفزه على العمل، وتدفعه إلى الرغبة المستمرة فى التطور ، ولا بد أن نفكر ويفكر الفلاح أن التيار الكهربائى المتولد عن السد العالى والذى يصل ثمن الكيلوات فيه إلى مليمين ، لا يمكن أن تمر أسلاكه فوق الحقول دون أن نستفيد بها أقصى فائدة فى المزارع والصناعات الصغيرة ، بالإضافة إلى ماخطط لاستخدامه من الصناعات الثقيلة أو المتوسطة .

ولا يمكننى أن أتصور الناتج الحقيق للمزايا المادية لهذا التفاعل الحقيق بين الأراضى المستقبلة والأقطار المتطورة والإنسان المصرى الجديد ، فإن الإنتاج الزراعى فى هذه الحالة لابد وأن يأخذ صورة جديدة يتوقف حجمها وجمالها على الإيمان بمستقبلنا ، وعلى الإيمان بحق الأجيال القادمة فى أعناقنا . أما الكسب المعنوى لبناء السد العالى الذى يعتبر بحق مفخرة الجيل الحاضر فإنه كما قال فيلسوف الاشتراكية العربية الرئيس جمال عبد الناصر ، مثل لما يمكن للإرادة العربية أن تحققه متى آمنت بأهدافها ، وأخلصت فى العمل لتحقيقها .

بارك الله للأمة فى زعيم ثورتها ، ورائد نهضتها ، وفى أبنائها المخلصين ، وأتم على العروبة ما نرجوه لها من عزة وانتصار . ولمثل هذا فليعمل العاملون .